الفصل الخامس

الوقف والمنشآت الطبية

تطورت المنشآت الطبية في العصور الإسلامية تطوراً كبيراً، وصلت معه إلى حد إمكانية القول بأن العرب المسلمين كانوا أول من وضع اللبنات الأولى لهذا النوع من المباني، بصورتها المعاصرة، سواء كانت مستشفيات أو صيدليات أو حتى مدارس طبية وغيرها، ليس فقط في مجال الوظائف التي كانت تؤديها تلك المنشآت وشموليتها لعلاج كافة الأمراض والحالات الصحية المختلفة، بل أيضاً بالتخطيط العمراني والأنماط المعمارية التي كانت تبنى عليها هذه المباني بعناصرها ومكوناتها المختلفة.

وعن التطور الكبير الذي كانت عليه المباني الطبية في المدينة الإسلامية، في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوربا في ظلام العصور الوسطى، يقول الدكتور ماكس: "إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درساً قاسياً مرّاً لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه"[1]. إن أهم ما ركزت عليه المنشآت الطبية في العصور الإسلامية هو الإنسان عن طريق خدمة مختلف جوانبه وتحقيق احتياجاته الصحية، بل إن الأمر لم يقتصر على خدمة الإنسان، بل بعض هذه المباني خدم الحيوانات أيضاً.

---

(١) مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٥٥.

إن من عجائب الوقف أنه لم يتوقف على الإنسان فقط، بل امتد إلى الحيوان والطير. حيث يذكر صاحب كتاب فاس عاصمة الأدارسة: "أن أوقاف مدينة فاس وحدها بلغت الذروة في الحضارة الإنسانية والرحمة والذوق الرفيع، حيث لم تكتف الأوقاف برعاية الإنسان وحده بل تجاوزت الإنسان إلى كل ذي كبد حري من طير وحيوان ..."[٢]، ولم تكن فاس وحدها صاحبة هذه الميزة، فقد كانت هذه السمة مميزة للوقف في كل بقاع الخلافة الإسلامية. ومن جوانب الاهتمام بالحيوان فيما يختص بالنواحي الصحية، توفير مبانٍ تعالج فيها الحيوانات المريضة.

لاشك في أن اهتمام الإسلام بالإنسان وصحته، باعتبار ذلك من الضرورات الخمس، كان من أهم الأسباب التي ساعدت في الرقي الطبي في المدينة الإسلامية، إلا أن الوقف كان له الدور الأكبر في تشييد هذه المباني والمحافظة عليها لأداء وظيفتها، وكان ذلك مما كان يوقفه الواقفون من أوقاف تدر غلالاً وأرباحاً للصرف على المنشآت الطبية، بما فيها تشييدها وعمارتها واحتياجاتها من الأدوية ورواتب العاملين فيها من أطباء وممرضين وغيرهم.

(٥,١) البيمارستانات

كان لفظ البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) يطلق على مبنى المستشفى، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين، (بيمار) وتعني مريضاً أو عليلاً أو مصاباً، وستان بمعنى مكان أو دار، فهي إذاً دار المرضى[٣]. كما كانت تسمى في بعض الأحيان المارستان[٤].

---

(٢)خديجة مفيد، "المرأة والوقف – التجربة المغربية"، *مجلة أوقاف*، العدد ١٠، السنة السادسة، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، مايو ٢٠٠٦م، ص ١٦٣.

(٣)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨١م، ص ٤.

(٤) أما عن ارتباط اسم المارستان بمأوى المجانين، فيمكن القول بأن البيمارستانات كانت في البداية وإلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية وعينية وعقلية، إلى أن=

قيل إن البيمارستانات نشأت في جنديابور - مدينة بخوزستان ويقال لها الخور- قبل الإسلام بثلاثة قرون، حيث كانت طائفة الأطباء النسطوريين تدير بيمارستانَ أقاموه هناك بعد أن هربوا من اضطهاد الرومان الشرقيين لهم(٥). وكان العرب قبل الإسلام يستمدون أطباءهم من خريجي هذا البيمارستان. فقد استطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده أطباء تخرجوا من جنديسابور كالحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث بن كلدة(٦).

ويعتبر المؤرخون المسلمون نواة هذه البيمارستانات في الإسلام تلك الخيمة التي أمر النبي ﷺ بإقامتها في غزوة الخندق، والتي كانت رفيدة الأسلمية تداوي الجرحى فيها(٧). بينما أنشئت أول دار لمداواة المرضى في الإسلام سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م، حيث بناها الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، وجعل فيها الأطباء وتكفل بالنفقات الجارية والمعيشية عن طريق الأوقاف التي أوقفت عليها(٨)، وكان هذا البيمارستان للمجذومين والعميان(٩). ومما لا شك فيه أن البيمارستانات الإسلامية كانت في بدايتها بسيطة، ولكنها بمرور الأيام توسعت وأخذت شكلها وتكوينها المعماري المتكامل، بعد

=أصابتها الكوارث، ودار بها الزمن وحلّ بها البوار وهجرها الأطباء والمرضى فأقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها، فصارت كلمة مارستان إذا سمعت لا تعني إلا مأوى المجانين(عن: محمد مطيع الحافظ، *البيمارستان النوري بحلب ووقفيته*، مرجع سابق، ص ١٦٢).

(٥) حسين، محمد كامل، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (د.ت)، ص ٢٢٧

(٦)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ص ٦٢- ٦٣.

(٧)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٨)فؤاد عبد الله العمر، *إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية*، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٩)محمد كامل حسين، *الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب*، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

أن أدخل عليها الكثير من الإضافات والتحسينات، واستمرت البيمارستانات في التطور حتى بلغت في زمن العباسيين ذروتها، وأصبح لها مميزات لا تختلف بها عن مستشفيات العصر الحديث[١٠].

وقد تنوعت مباني المستشفيات بين أنماط معمارية عدة؛ وفقاً لموقعها، وأحجامها المختلفة، والتخصص في الوظيفة. فكان منها المتنقلة التي تكون مع الجيوش في الغزوات، ومنها الثابتة وهي التي كانت تمتلئ بها المدن الإسلامية، حيث لم تخل بلدة كبيرة كانت أو صغيرة من مستشفى، ومنها مستشفيات خاصة للمساجين ومنها محطات أو مراكز أسعافية تكون بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم بها الناس، ومنها المستشفيات العامة التي تفتح أبوابها لكافة أفراد المجتمع ولمعالجة كافة الأمراض، كما أن منها المتخصصة التي كانت تُعنى بمعالجة مرض معين كأمراض العيون أو الأمراض العقلية أو الجذام أو العناية بالعجزة وغيرها[١١].

ومما يمكن قوله إن أغلب البيمارستانات الإسلامية كانت تبنى في أحسن الأماكن موقعاً؛ على الربوات، أو جوانب الأنهار، وكانت قاعات البيمارستانات فسيحة حسنة البناء والماء فيها جارياً[١٢].

وكان الخلفاء والملوك والسلاطين يتبارون في إقامة البيمارستانات في مباني ذات عمارة ممتازة، وقد بلغ بعضها مبلغاً كبيراً من اتساع المساحة، كما كانت قاعاتها فسيحة حسنة الزخرفة، كما ألحقت مباني البيمارستانات في كثير من الأحيان بمؤسسات كالمساجد والمدارس[١٣].

---

(١٠)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١١)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(١٢)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١٣)محمد كامل حسين، *الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب*، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

وكان بالبيمارستان خزانة شراب، وهي جزء مهم من مرافق البيمارستان، يقوم عليها الصيادلة، ولهم رئيس وهو "شيخ صيادلة البيمارستان"، وقد أطلق أيضاً على الصيدلية اسم "الشرابخاناه" (أي بيت الشراب)، وكان بها دائماً العديد من الأدوية والأشربة والعطريات والمعاجين وغيرها من أصناف شتى، كما كانت تضم من الآنية الصينية والآثار والأدوات والأواني النفيسة(١٤).

"إن أمر إنشاء المستشفيات التعليمية وكليات الطب والإيقاف عليها وعلى الصيدليات لم يقتصر على الخلفاء والسلاطين، بل شمل الأثرياء ورجال الطب أنفسهم الذين أسسوا مستشفيات مرموقة ودرسّوا فيها طلبتهم، مثل سنان بن ثابت، والرازي، وغيرهم مثل شهيد العلماء الطبيب الذي استطاع أن يشفي ابنة أحد الأمراء فمنحه ثقله ذهباً بعد أن شفيت ابنته، فما كان من الطبيب إلا أن تبرع بهذا الذهب فأوقفه في سبيل إنشاء مستشفى تعليمي، كما أن ابن النفيس أحد أشهر الأطباء العرب في زمانه، وهو الذي اكتشف الدورة الدموية فلقب بابن سينا الثاني، وكان يعمل في المستشفى المنصوري، بنى داراً مجاورة أوقفها على المستشفى وكان يدرس بها الطلبة ولما لم يكن متزوجاً فقد أوقف مع هذه الدار وما حوته من كتبه الطبية والعلمية وكل ما يملك على داره العلمية هذه وعلى المستشفى المنصوري هذا"(١٥). كما حول القطيعي – أحد أطباء مصر المشهورين – أحد دوره إلى ما يشبه البيمارستان يأوي إليه المرضى من الفقراء، فيعالجهم ويقدم لهم الأغذية والأدوية، ويقوم بخدمتهم مجاناً، وكان ينفق أكثر دخله في هذا السبيل(١٦).

---

(١٤) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(١٥)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(١٦)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٢٩.

ومع تنوع المستشفيات كانت كثرتها أيضاً؛ ففي قرطبة بالأندلس وحدها كان هناك ٥٠ مستشفى أوقفها الخلفاء والأمراء. كما رأى ابن جبير سنة ٦١٤هـ أن في بغداد حياً كبيراً مخصص فقط للطب ولمشافاة الناس(١٧).

وتدل الوثائق الوقفية على أن المستشفيات سواء أكانت عامة أم خاصة، كانت تقوم على نظام دقيق من حيث الإدارة والإشراف الطبي ووسائل العلاج، حيث كان لكل بيمارستان رئيس للأطباء يسمى ساعور البيمارستان، ولكل قسم من أقسامه رئيس. فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين ورئيس للكحالين (أطباء العيون) وللبيمارستان فراشون من الرجال والنساء ويقوم الممرضون على خدمة المرضى. كما كان هناك رئيس يدير البيمارستان بكافة فروعه ويسمى ناظر البيمارستان وكان هذا المنصب من المناصب المهمة في الدولة، فكان الناظر عادة واحداً من الأمراء أو القادة أو أحد عظماء الدولة، ولناظر البيمارستان الأمر المطلق في الإدارة، وتحت يده ناظر الوقف، الذي كان يقدم لنظار البيمارستان ميزانية الواردات والمصروفات ويبت فيها ناظر البيمارستان فيما يراه لصالح المستشفى وراحة المرضى. أما تفتيش البيمارستان فكان يقوم به صاحب الحسبة أو المحتسب الذي كان له الحق في أن يدخل البيمارستان ويتفقد أحوال المرضى ودرجة العناية بهم، والطعام الذي يقدم لهم ونظافتهم وسهر الخدم عليهم واعتناء الأطباء بهم وصحة معالجتهم، وكان له معاقبة المقصر منهم؛ فإن كان طبيباً أو صيدلياً منع من ممارسة المهنة، وإن كان من بقية منتسبي البيمارستان فله حق طرد المخالف منهم(١٨).

---

(١٧) سامي محمد الصلاحات، *دور الوقف في مجال التعليم والثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة، دولة ماليزيا المسلمة نموذجاً*، مرجع سابق، ص١٠.

(١٨) محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ص ١١٠- ١١١.

كما اتبع الأطباء العرب نظام المرور على المرضى لتفقد أحوالهم، كما يحدث الآن في مستشفيات العصر الحاضر، فكان رئيس الأطباء يمر بالمرضى ومعه مشاركوه، وكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير يتم تنفيذه بسرعة. وإذا دعا الحال كان الأطباء والمتخصصون يدعون من قسم آخر غير القسم الذي يقيم به المريض للاستشارة[١٩].

(٥,١,١) بيمارستان أحمد بن طولون

أنشأ أحمد بن طولون البيمارستان المسمى باسمه بالفسطاط سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، وقد سبقه في مصر بيمارستان في عصر ولاة الأمويين في دار أبي زبيد بزقاق القناديل بالفسطاط، ثم أنشىء بيمارستان المعافر سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م. ويبدو أن هذين البيمارستانين كانا من الصغر وقلة الأهمية بحيث أن بعض المؤرخين اعتبروا بيمارستان أحمد بن طولون أول بيمارستان أنشىء في مصر[٢٠].

وقد أنفق أحمد بن طولون على هذا البيمارستان ستين ألف دينار، وحبس عليه دار الديوان، ودوره في الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق، وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء، وشرط إذا جيء بالعليل أن تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ[٢١]. قال القضاعي: "ولم يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك"[٢٢]. كما قال عنه السيوطي: "وقد جعل ابن

---

(١٩)محمد كامل حسين، *الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب*، مرجع سابق، ص ص ٢٢٨- ٢٢٩.

(٢٠)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢١)يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، *الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي*، مرجع سابق، ص ص ٥١- ٥٢.

(٢٢)أحمد بن علي القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، ج٣، مرجع سابق، ص٣٩٢.

طولون في مؤخرة المسجد (يعني مسجد أحمد بن طولون) دار شفاء، ألحق بها صيدلية، أعد فيها من الأدوية، وأنواع الشراب، ما يلزم لإسعاف من يحدث له حادث من المصلين، خصوصاً يوم الجمعة، ورتب لهذه الصيدلية خدمها، وعين لها طبيباً، وألزمه بالتواجد يوم الجمعة استعداداً للطوارئ، وقد أصبحت هذه الدار فيما بعد مثابة للطلبة، الذين يتلقون بها دروساً في الطب والعلاج، ويتردد عليها الأطباء، حيث ألقت مباحثهم الطبية على أطباء الغرب ضوءاً كبيراً"[٢٣].

وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا البيمارستان أنه كان يتفقده بنفسه يوماً في كل أسبوع، كان في الغالب يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية، ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على سائر المرضى، ويعمل على مواساتهم، وإدخال السرور عليهم، بما في ذلك المحبوسين من المجانين، حتى غافله في يوم أحدهم ورماه برمانة كادت تقضي عليه، فلم يعاود البيمارستان بعد ذلك[٢٤].

(٥,١,٢) البيمارستان العضدي

أنشأه عضد الدولة بن بويه في الجانب الغربي من بغداد، وافتتح في صفر من سنة ٣٧٢هـ، ورتب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخُزّان، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيئاً كثيراً ومن كل ما يحتاج إليه. وقال عنه ابن القفطي: "لما عمّر عضد الدولة البيمارستان ببغداد جمع إليه الأطباء من كل موضع فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيباً وابن مندويه الأصفهاني واحد منهم، وفي سنة ٤٠٨هـ توفي الحاجب الكبير الشباسي أبو نصر مولى شرف الدولة بن بهاء الدولة، ولقّبه بهاء الدولة بن بويه بالسعيد، وكان كثير الصدقة والأوقاف على وجوه القربان، فمن ذلك أنه وقف

---

(٢٣)ياسين بن ناصر الخطيب، *أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة*، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

(٢٤)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٢٧.

ضياعاً على المارستان وكانت تغل شيئاً كثيراً من الزرع والثمار والخراج". كما قال العيني: "استهلت سنة ٤٤٩هـ والخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك، في هذا الوقت نظر عميد الملك في المارستان العضدي وكان قد خلا من دواء وشراب وكان المرضى على وجه الأرض ... وكان أبو الحسن بن المهتدي ويعرف بابن العريق قد عرف أن يهودياً يعرف بالهاروني استولى عليه وأكل أوقافه، فاستخلصها من المتغلبين عليها وشرع في العمارة وخلص المارستان من أيدي الطامعين فهاب المتغلبين بخمسة آلاف طابق وقيل بعشرة آلاف، وكان على بابه سوق فيه مائة دكان قد دثرت فأعادها وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً، وأقام الفُرُش واللحف للمرضى، والأراييح الطيبة والأسّرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين. وكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات وبوابون وحراس، والحمّام، والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة"[٢٥].

(٥,١,٣) البيمارستان النوري الكبير بدمشق

أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك زنكي التركي السلجوقي، سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، في دمشق، وقد استمر يقوم بدوره حتى سنة ١٣١٧هـ[٢٦]. كان المسقط الأفقي للمبنى، (الشكل رقم ٥,١)، مربع الشكل تقريباً، به أربعة إيوانات، تحيط بفناء به بحيرة مياه، أحدها مدخل للمبنى، وواحد للصلاة، والإيوانان الآخران عبارة عن قاعتين للصلاة، ويجاور الإيوانات أربع غرف مغلقة كانت تستخدم كغرف استشارات طبية، ولم يكن به إقامة للمرضى[٢٧].

---

(٢٥)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ص ١٨٧- ١٩٠.

(٢٦)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٢٧) J. D, Hoag, *Islamic Architecture*, (op. cit.), p.173

وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها، وقد اشترط نور الدين في وقفه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه فيسمح لهم بها، وكان الشراب والدواء فيه مباحاً لكل مريض يقصده[٢٨].

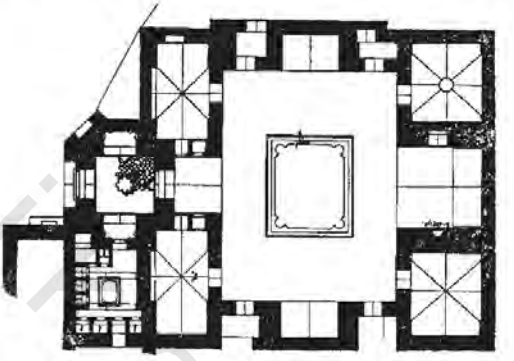

الشكل رقم (٥،١). البيمارستان النوري بدمشق[٢٩].

وقد وصف هذا البيمارستان ابن جبير في رحلته إلى الشام فقال: "دخلت دمشق عام ٥٨٠هـ وبها مارستان: قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الدواء والغذاء، واهتم به الملك العادل وعيّن فيه أبا المجد بن أبي الحكم الباهلي، وجعل أمر الطب مفوضاً إليه"[٣٠]، كما قال عنه في موضع آخر إنه "مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام، وله قوم بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك". ويضيف ابن كثير أن نور الدين زنكي وقف هذا البيمارستان على الفقراء دون الأغنياء، اللهم إلا إذا لم يجد الأغنياء دواء

(٢٨) مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٢٩) Ibid, p.214.

(٣٠) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٣٤.

لعللهم إلا في هذا البيمارستان[٣١]. وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه (أي أبي المجد)، ثم تجري بينهم مباحث طبية، ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات[٣٢].

ولبيان حال هذا البيمارستان في العصور المتأخرة، وما كان عليه من الأهمية والمكانة ننقل ما جاء في قول المحبي في صدده: "إن حسن باشا بن عبد الله الأمين المعروف بشوريزة حسن، أحد صدور دمشق وأعيانها المتوفى سنة ١٠٢٧هـ، ولي وقف البيمارستان الكبير النوري فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت وعمّر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه". كما أخبر العالم الجليل الأستاذ محمد كرد علي بك وهو من أعلام دمشق: "أن البيمارستان الكبير النوري ظل عامراً يعالج فيه المرضى إلى سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق في عهد ولاية حسين ناظم باشا والي سوريا سابقاً بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من تكية السلطان سليمان، المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له الإعانات بأساليب مختلفة، من واردات البلدية وأوقاف البيمارستان النوري لتنفق عليه، وسمي المستشفى الحميدي نسبة إلى السلطان العثماني عبد الحميد الذي بني المستشفى الجديد في عهده"[٣٣].

(٥,١,٤) البيمارستان النوري بحلب

أوقفه الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك زنكي التركي السلجوقي، وكان ملكاً محباً للعمران، ترك في دمشق وحلب وحماة والموصل والمدينة

---

(٣١) محمد بن أحمد الصالح، *الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع*، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٣٢) أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ص ١٤- ١٥.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٢١٣.

المنورة وغيرها، من الآثار ما لم يتركه أحد قبله، فقد عمّر المساجد والمدارس ودور الشفاء للمرضى والعميان والمجانين[٣٤].

وهناك قصة تروى عن اختيار مكان هذا البيمارستان، تكشف لنا عن الاهتمام باختيار مواقع المباني الصحية وهي المستشفيات خاصة. حيث قال كامل البالي الحلبي الشهير بالغزي: "البيمارستان النوري: هو لصيق البهرامية من جنوبها الشرقي، بناه نور الدين محمود بن زنكي، وقد تقدم إلى الأطباء أن يختاروا من حلب أصح بقعة هواء، فذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأربعة أرباع المدينة ليلاً، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة ما علّق منها في هذا الربع فبنوا البيمارستان فيه"[٣٥].

وقد جاء في نص وقفية هذا البيمارستان الأوقاف التي أوقفها السلطان، وهي توضح مدى الكثرة التي كانت عليها ليقوم البيمارستان بوظائفه على الوجه الذى أراده له الواقف[٣٦].

(٥,١,٥) بيمارستان الموصل

قال ابن كثير، في سنة ٥٧٢هـ بنى الأمير مجاهد الدين قايماز نائب قلعة الموصل بالعراق جامعاً حسناً (الجامع المجاهدي) ورباطاً ومدرسة ومارستاناً متجاورات بظاهر مدينة الموصل على دجلة. وأوقف عليه الأوقاف. وفي سنة ٥٨٠هـ زار الموصل ابن جبير فذكر أن أحد أمراء بلدة الموصل وكان يعرف بمجاهد الدين بنى جامعاً على شط دجلة وأمامه مارستان حفيل، وحوالي سنة ٧٢٨هـ دخل الرحالة ابن بطوطة مدينة الموصل فوجد بها مارستاناً أمام مسجدها الجامع[٣٧].

---

(٣٤) محمد مطيع الحافظ، *البيمارستان النوري بحلب ووقفيته*، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٣٥) المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣٦) المرجع السابق، ص ص ١٧٠- ١٧١.

(٣٧) المرجع السابق، ص ص ٢٠٠- ٢٠١.

(٥,١,٦) بيمارستان عكا

في سنة ٥٨٣هـ، بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس، وأنقذه من أيدي الصليبيين، انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا، ولما وصل إليها نزل بقلعتها ووكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش، ووقف دار الإشتبار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً مدرة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب[٣٨].

(٥,١,٧) بيمارستان غزة

لما توفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتولى الملك الصالح إسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي بنيابة غزة فحضر إليها، وأقام بها مدة شرع في أثنائها في عمارة الجامع بغزة، وعمّر حماماً هائلاً ومدرسة للشافعية، وعمر خاناً للسبيل، وبنى بغزة مارستاناً ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيها لنواب غزة[٣٩].

(٥,١,٨) مجمع الربع الرشيدي في إيران

أسسه وأوقفه رشيد الدين فصل الله الهمداني[٤٠] (٦٤٨- ٧١٨هـ)، في مدينة تبريز بإيران، وكان الربع عبارة عن مجموعة من المنشآت التي شملت المركز الطبي وهو عبارة عن مستشفى، وكلية للطب، ودار الضيافة، والخانقاة، والروضة، ودار المساكين[٤١].

---

(٣٨)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٤٠) رشيد الدين فضل الله الهمداني هو الطبيب والمؤرخ والوزير الإسلامي المعروف، عاش في مدينة تبريز بإيران، في زمن دمر فيه المغول المؤسسات الاجتماعية في إيران وسائر بلاد الشرق الإسلامي، فكان أحد الذين حملوا على عاتقهم حفظ تراث السابقين وإعادة التعمير، وله وقفيات كثيرة على مبانٍ ومنشآت عظيمة في مدينة تبريز (حسين اميدياني، *مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف*، مرجع سابق، ص ٥٠).

(٤١)حسين اميدياني، *مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف*، مرجع سابق، ص ص ٥٠- ٥٤.

وكان الأطباء، وكما هو مدون في وثيقة الوقف، يتناوبون في الدوام ليبقى المستشفى مفتوحاً طوال اليوم مع وجود طالب في الطب وصيدلي بشكل مناوبة، وقد كتب رشيد الدين إلى ابنه سعد الدين يقول: "خمسون طبيباً حاذقاً استقدمناهم من أفضل بلاد الهند ومصر والصين والشام وباقي البلدان، وأمرناهم بالتردد المتناوب في دار الشفاء، ووضعنا أمام كل طبيب عشرة من المتعلمين والطلبة المتفوقين ليعلموهم هذا العلم الشريف، وقد بنينا للكحالين (أطباء العيون) والجراحين، والمجبرين (أطباء العظام) الموجودين في دار الشفاء المنشغلين بوظائفهم مستوصفاً قرب بستان رشيد آباد أطلقنا عليه اسم (معالجة المعالجين)"[٤٢].

وكان على الطبيب أن يعالج كافة سكان الربع الرشيدي القاطنين أو المسافرين والعمال، وقرر الواقف أن يقدم الدواء مجاناً يومي الاثنين والخميس لجيران الربع الرشيدي من أولاد الواقف والغلمان الذين أطلقهم والفلاحين والمزارعين في أوقاف الربع الرشيدي، وإذا ما تدهورت صحة أحد المسافرين، فإن على المتولي أن يحدد مكان استراحته؛ ليتولى الطبيب معالجته، ومن ثم مواصلة سفره[٤٣].

ورغم أن تكلفة الأدوية في المجمع الرشيدي كانت باهظة، حيث كان يتم جمعها من مناطق مختلفة، إلا أن العلاج في الربع كان بالمجان تماماً، فلم تكن تؤخذ الأجرة لا من المقيمين ولا المسافرين ولا حتى باقي المرضى[٤٤].

(٥,١,٩) بيمارستان المدينة المنورة

جدده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، أثناء رحلته إلى المدينة لتجديد عمارة المسجد النبوي بها، وكان ذلك في سنة ٦٦٣هـ[٤٥].

---

(٤٢) المرجع السابق، ص٦٧.

(٤٣)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٤٤)حسين اميدياني، *مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز تجربة مؤسسية رائدة في الوقف*، مرجع سابق، ص٧٤.

(٤٥)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٥,١,١٠) بيمارستان قلاوون بالقاهرة

كان يعرف أيضاً بالمستشفى المنصوري الكبير، (الشكل رقم ٥,٢)، وكان داراً لبعض الأمراء، فحولها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى بيمارستان عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وتمت عمارته في أحد عشر شهراً وأيام، وكان ذلك في عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، فركب السلطان إلى البيمارستان، وجلس به ومعه الأمراء والقضاة والعلماء، واستدعى قدحاً من الشراب فشربه، وقال: "وقد وقفت هذا على مثلي فمن دوني"، فكان وقفه على الملك والمملوك، والجندي والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد الذكور والإناث[٤٦].

وأوقف عليه السلطان من الأملاك بديار مصر القياس والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك، والضياع بالشام، ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجد ومدرسة ومكتب للأيتام، ورتب مصاريف كل واحد منها. ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جندار في وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر فيه أيام حياته ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي. وكان من الأوقاف التي أوقفها على البيمارستان قيسارية الصبانة بالفسطاط، وفندق الملك السعيد بالفسطاط، وحمام الساباط، وقيسارية المحلي، وقيسارية الضيافة، وقيسارية الفاضل، وسوق القفيصات (جمع قفص)، وسوق الكتبيين[٤٧].

---

(٤٦)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص٢١.

(٤٧)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ص ٨٤- ٨٦، ١٢٣- ١٢٤.

وكان هذا المستشفى آية من آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحاً لجميع الناس من ذكر وأنثى وحر وعبد وملك ورعية، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ودراهم لنفقاته حتى لا يضطر للعمل الشاق فور خروجه، ومن مات جُهز وكُفّن ودُفن. وكان في المستشفى أماكن لكل طائفة من المرضى تختص بهم، كما رتب فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة. ومن أروع مما كان في نص وقفية المستشفى على أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل[٤٨]، وذلك زيادة في الحيطة، واتباعاً لأساليب صحية، أصبحت بمرور الزمن، ونتيجة للعمل بشروط الواقف، من التقاليد الصحية المتعارف عليها[٤٩].

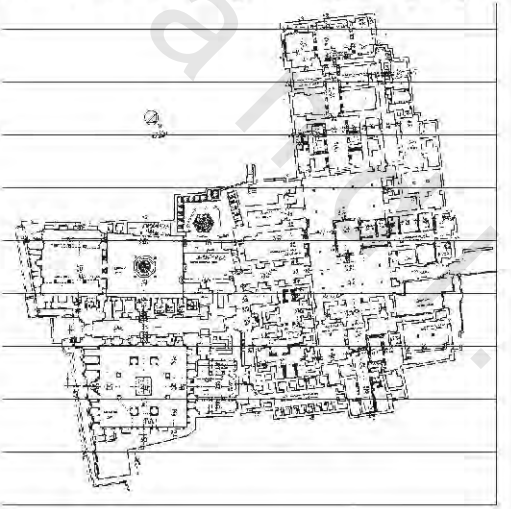

الشكل رقم (٥,٢). المسقط الأفقي لمجموعة قلاوون ومنها البيمارستان[٥٠].

---

(٤٨)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ص ١٤٩- ١٥٠.

(٤٩)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٥٠) مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، *أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة*، مرجع سابق، ص ٩٥.

وكان البيمارستان مقسماً إلى قسمين ؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث. وكل قسم مقسم إلى قاعات حسب أنواع الأمراض، ولكل قسم ما بين طبيب أو ثلاثة بحسب اتساع القسم وعدد المرضى، وله رئيس يتولى الإشراف عليه. كما كان يحتوي على الخدمات اللازمة من إضاءة وماء، وترتيب الفراشين. كما راعى الواقف جو الصيف في مصر، فاشترط صرف مراوح من الخوص يستخدمها المرضى للتخفيف من حرارة الصيف(٥١).

كما كان البيمارستان فسيحاً، حيث كانت مساحة الدار التي بني عليها البيمارستان عشرة آلاف وستمائة ذراع(٥٢). ومما يدل على سعته أن بعض أطباء العيون أخبر أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس(٥٣)، ورغم ما يبدو عليه هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية هذا البيمارستان، ومدى الاستفادة منه من مختلف فئات الشعب(٥٤)، في ذلك الوقت المبكر من تشييد المستشفيات بهذا الشكل المتكامل.

وقد بلغ هذا البيمارستان أرقى ما وصلت إليه أحوال البيمارستانات في الدولة الإسلامية، كما تشهد آثاره الباقية على ما كان عليه من روعة الزخرفة والبناء(٥٥)، (الشكل رقم ٥,٣).

---

(٥١) المرجع السابق، ص ص ١٣١- ١٣٢.

(٥٢)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٥٣)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٥٤)محمد محمد أمين، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية*، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٥٥)محمد كامل حسين، *الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب*، مرجع سابق، ص ٢٣١.

الشكل رقم (٣,٥). واجهة مجموعة قلاوون[٥٦].

وجاء في وصف البيمارستان في نص الوثيقة "البيمارستان المبارك المنصوري المستجد إنشاؤه، والبديع بناؤه، المعدوم في الآفاق مثاله، والمشهور في الأقطار حسن وصفه، وجماله، لقد أعجز همم الملوك الأول، وحوى كل وصف جميل واكتمل، وحدث عنه العيان والخبر، ودل على علو الهمة فيه، كالسيف دل على التأثير بالأثر"[٥٧].

وكتب عن عمارته المؤرخ المهندس العالم مكس هرتزبك – كبير مهندسي لجنة حفظ الآثار العربية – سنة ١٩١٠م: "المارستان المنصوري هو من أهم عمائر الفن

---

(٥٦) Hillenbrand, R., *Islamic Architecture*, Form, function and meaning, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2000, p. 194

(٥٧) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ابن حبيب، تحقيق: محمد محمد أمين، *تذكرة التنبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول*، المرجع السابق، ص ص ٣٠١-٣٠٢.

العربي في مصر"[٥٨]. كما وصفه ابن بطوطة بقوله: "وأما المارستان الذي بين القصر عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم"[٥٩]. أما الرحالة ابن جبير فقد وصفه بقوله: "وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجّراً واحتساباً وعيّن قيّماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسي. وبين يدي ذلك القيّم خَدَمَة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مُقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضاً من يكفلهن"[٦٠]. كما جاء عنه في "مسالك الأبصار": "وهو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، العظيم بنائه، وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه، وتنوع الأطباء والكحّالين والجرائحية فيه"[٦١]. كما وصفه أيضاً بريس دافن فقال "أن قاعات المرضى كانت تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو الشجيرات العطرية"[٦٢].

كما حدد الواقف مواعيد وجود الأطباء بكل دقة، فاشترط ضرورة وجود الأطباء الكحّالين (أطباء العيون) صباح كل يوم؛ حتى لا يأتي مريض للعلاج ويرد. كما توضح وثيقة الوقف نقطتين غاية في الأهمية: الأولى، ضرورة مراجعة الطبيب الكحّال (طبيب العيون) للطبيب الطبائعي (طبيب الأمراض الباطنية)؛ للنظر سوياً في

---

(٥٨)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٥٩) ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار*، مرجع سابق، ص٥٦.

(٦٠) ابن جبير، *رحلة ابن جبير والمسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار*، مرجع سابق، ص٢٦.

(٦١)أحمد بن علي القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، ج٣، مرجع سابق، ص٤١٨.

(٦٢)محمد كامل حسين، *الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب*، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

علاج المريض الذي قد يرجع مرض عينيه إلى أسباب باطنية، ويبين لنا ذلك التعاون بين الأطباء في ذلك الوقت في فروع الطب المختلفة، وهو ما يقابل أحدث وسائل العلاج وتشخيص الأمراض في العصر الحديث. والنقطة الأخرى، حرص الواقف على ضرورة وجود الأطباء ليلاً بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين، مما يدل على مدى اهتمام الواقف بالرعاية الصحية، وضرورة الاحتياط لمواجهة الحالات الطارئة والحوادث المفاجئة، فضلاً عما قد يحدث من أزمات لمرضى البيمارستان ليلاً[٦٣].

ولم يقتصر دور البيمارستان على المرضى القادمين إليه فقط، بل شمل ذلك أيضاً المرضى الفقراء في بيوتهم، فقد نص السلطان قلاوون في وقفية البيمارستان على أن: "من كان مريضاً في بيته، وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في يومه تجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله"[٦٤]، حتى أنه قد وصل عدد هؤلاء الذين كانوا يعالجون في بيوتهم في وقت من الأوقات ما يزيد عن مئتين غير من كانوا مقيمين بالبيمارستان[٦٥].

وقد كان لعمارة البيمارستان مباشرون ينفردون بها، من شراء الأصناف واستعمال الصباغ ومرمة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحالون بأثمان الأصناف على الصندوق كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق بثمن

---

(٦٣)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ص ١٣٢- ١٣٣.

(٦٤)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٦٥) عيسى، أحمد، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ٨٨.

الأصناف وأرباب الأجر ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق وما وصل إليهم من المال، ويسوقونه إلى فائض أو متأخر، ويرفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم اليومية والشهرية والسنوية إلى الناظر والمستوفي في هذا ما يتعلق بالبيمارستان[٦٦].

وقد استمر من جاء بعد الملك الناصر في عمارة البيمارستان؛ ففي عهد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٧٢٦هـ، تم الشروع في إصلاح البيمارستان والقبة والمدرسة، فتم إخلاء القاعات من المرضى بعد شفائهم، وأصلحت الجدران وجدد البياض والأدهان ونحت ظاهر القبة والمدرسة والمئذنة بالأزاميل، وكان جملة ما صرف على هذه العمارة ما يقرب من ستين ألف دينار[٦٧]. ولكن مع مرور الزمن، وبسبب فساد إدارة وقفه في متابعة مصادره المالية واستنزافها في أمور شخصية تراجع مستواه وتدهور وضعه، حتى تولاه الأمير صرغتمش سنة ٧٥٥هـ، فنزل إليه وتفقد أحوال المرضى فيه فساءه ما هم عليه من إهمال فطلب من القاضي يوسف بن أبي بكر الإشراف عليه فوافق، فعمّرت الأوقاف فزاد ريع الوقف في الشهر نحو أربعين ألف درهم، وعمّر المستشفى، وانصلحت أحوال المرضى[٦٨]. وفي سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا البيمارستان، وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية، والقبة التي كانت بأعلى الفسحة من خارج، ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط، وترك الأخرى مكشوفة، ورتب له أرزاقاً وأخباز زيادة على البقايا القديمة[٦٩].

---

(٦٦) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٦٧) المرجع السابق، ص ص ٩٣- ٩٤.

(٦٨) يحيى محمود بن حنيد الساعاتي، *والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي*، مرجع سابق، ص ص ٥٤- ٥٥.

(٦٩) أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٥,١,١١) بيمارستان غرناطة

اهتم المرابطون، ومن بعدهم الموحدون ببناء البيمارستانات، وما يؤكد ذلك ما ذكره الونشريسي على الخلاف الذي وقع بين أهل قرطبة، حول مشاركة مرضى المقاطعات الأندلسية مرضى قرطبة في الأحباس التي خصصت لمرضى قرطبة، حيث أفتى ابن الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي الفاسي المعروف بابن القطان، بمشاركة الوافدين من المرضى إلى قرطبة في هذه الأحباس(٧٠).

فقد بنى أمير المسلمين بالأندلس محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر، الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٧٥٥هـ، بيمارستان غرناطة، وهو ما يسمى بالبيمارستان الأعظم. وذكره مارشيه فقال: "... لكنه في مظهره أبسط من معاصره بيمارستان قلاوون، ففي وجهته بعض النوافذ، وفيها أقواس مزدوجة، وفي الوسط باب وأعتاب يعلوهما كتابة تشبه أشرعة الفلك، ويدخل من الباب إلى ردهة مربعة الزوايا مستطيلة وفي وسطها حوض فيه أسدان جاثيان يشبهان مثيليهما في قصر الحمراء وينبع منهما الماء، وحول الردهة أربعة أروقة ينفتح فيها أبواب طويلة ذات انحناء على شكل حذاء الفرس، وفي الزوايا سلالم يدخل منها إلى الطابق الأول"(٧١).

(٥,١,١٢) بيمارستان مكة المكرمة

من الأوقاف على المباني الطبية في مكة المكرمة، البيمارستان بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وقفه المستنصر العباسي، وتاريخ وقفه سنة ٦٢٨هـ، ثم عمّره

---

(٧٠)زرهوني نور الدين، *الطب والخدمات الطبية في الأندلس*، خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٧١)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ص ٢٨٨-٢٨٩.

السيد حسن بن عجلان عمارة حسنة، وأحدث فيها ما يحصل به النفع مثل الإيوانان وصهريج وغير ذلك، بعد أن استأجره مائة عام من القاضي الشافعي، ووقف ما عمّره وما يستحقه من متعته على الضعفاء والمجانين في صفر سنة ٨١٦هـ[٧٢].

(٥,١,١٣) البيمارستان المؤيدي

أنشئ هذا البيمارستان بالقاهرة، (الشكل رقم ٥,٤)، وقال المقريزي عن هذا البيمارستان: "هذا المارستان فوق الصّوة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان ابن حسين التي هدمها الناصر فرج بن برقوق وبابه هو حيث كان باب المدرسة إلا أنه ضيّق عما أنشأه الملك المؤيد شيخ في مدة أولها جمادى الآخرة سنة ٨٢١هـ وآخرها رجب سنة ٨٢٣هـ ونزل فيه المرضى في نصف شعبان وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة، فلما مات المؤيد في ثامن المحرم سنة ٨٢٤هـ تعطل ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين في ربيع الأول منها. وصار منزلاً للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان ثم عمل فيه منبراً ورتب له خطيباً وإماماً ومؤذناً وبواباً وقومة وأقيمت به الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٥هـ فاستمر جامعاً تصرف معاليم (رواتب) أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدي". ولما أنشأ الملك المؤيد شيخ الجامع العامر الرحب بباب زويلة وأنشأ خانقاة للصوفية والبيمارستان للمرضى والصهاريج للسقاية، أوقف على ذلك كله أوقافاً جمة من عقار وطين، ومما جاء فيما يخص البيمارستان في حجة الوقف ما يلي: "... ومن هذه الأوقاف الكبيرة العظيمة يرتب طبيباً طبائعياً وكحالاً وجرائحياً و ... الخ ولكل منهم ثلاثون نصفاً في الشهر وجعل النظر عليه لنفسه ثم للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور خاصة لكن بالاشتراك مع من يكون داوداراً كبيراً ومع كاتب السر مجتمعين غير

---

(٧٢) تقي الدين أبو الطيب أحمد بن علي الحسيني الفاسي، تحقيق مصطفى محمد حسين، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، ط١، مرجع سابق، ص١٢٧.

منفردين، فإن تعذر لذريته كان النظر للداودار وكاتب السر معاً ويصرف لكل منهما خمسمائة نصف شهرياً وإن تعذر فلحاكم المسلمين بالديار المصرية"[٧٣].

(٥,١,١٤) بيمارستان مراكش

أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب، حيث اختار ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمريض ثياباً ليلاً ونهاراً للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش فيه ريثما يشتغل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله، وكان يزوره كل جمعة ويعود المرضى ويسأل عن أحوالهم وعن معاملة الأطباء والممرضين لهم[٧٤].

الشكل رقم (٥,٤). بقايا البيمارستان المؤيدي بالقاهرة[٧٥].

---

(٧٣) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ص ١٧٢- ١٧٧

(٧٤)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ص ١٥٤- ١٥٥.

(٧٥) عن موقع آثار مصر الإسلامية (http://www.cim.gov.eg).

(٥,١,١٥) بيمارستان العزّافين

أقام حمودة باشا المرادي هذا البيمارستان بتونس، وحبس عليه أوقافاً للقيام بلوازم المرضى من طبيب وخدمة ودواء وطعام وكسوة وفراش، وكان يؤوي حوالي ٣٨ مريضاً[٧٦].

(٥,٢) البيمارستانات كمراكز تعليم طبية

أدرك المسلمون أن علم الطب باعتباره من العلوم التجريبية، لا يمكن دراسته بعيداً عن المرضى، كما أدركوا أن المستشفيات خير مكان لهذه الدراسة لقرب الطلاب من الحالات المرضية، ولتوفر العلاجات المتنوعة فيها. وكان اختيارهم هذه المستشفيات وجعلهم إياها كليات لتدريس الطب الإكلينيكي (العملي) من أعظم الأعمال التي ساهمت في تقدم العلوم الطبية الحديثة. يقول ماكس مايرهوف: "ولدينا معلومات وثيقة لأربعة وثلاثين معهداً من هذه المعاهد على الأقل كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي من بلاد فارس حتى مراكش ومن شمال سوريا حتى مصر"[٧٧].

تقول العلامة الألمانية سيجريد هونكه في كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب": "كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب. وكان الطلاب يتلقون فيها علومهم، ويتعلمون كل ما قاله أبو قراط وجالينوس وما جاء به أساتذتهم العرب الكبار أنفسهم. وكانوا يستمعون إلى كل هذا أيضاً في أحد الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها أطباء معروفون. واتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي

---

(٧٦)أحمد قاسم، *الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، مرجع سابق، ص ص ٣٣- ٣٤.

(٧٧)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١٢٣.

على طلاب العلم في الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر[٧٨]. فيقابلوا ما قد تلقونه نظرياً بما يشاهدونه بأعينهم. وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم في ذلك الوقت مثيلاً إلا في عصرنا الحديث"[٧٩].

وكمثال على ذلك يحدثنا ابن أبي أصيبعة كيف تلقى الدروس على يد أساتذته في البيمارستان النوري، فيقول: "كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصف للمرضى، وما يكتب لهم من أبحاث، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداولاتها ... وكان معه — أي مهذب الدين — في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران، وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، وما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها، وما كانا يصفان للمرضى"[٨٠].

وفي مجال الوقف على تعليم الطب، كان هناك الوقف على مدرس الطب وعلى الطلبة، ومن الأمثلة على ذلك وقفية حسام الدين لاجين التي نصت على ترتيب مدرس للطب بالجامع الطولوني، والوقف على هذا المدرس وعشرة طلبة يشتغلون بالطب، فجاء في الوثيقة "... أن رجلاً عارفاً بطب الأبدان، مشهور المعرفة للأمراض والأدوية وهو القاضي الأجلّ الصدر الريس العالم الفاضل شرف الدين محمد بن المرحوم شهاب الدين أحمد بن أبي الحوافر، الطبيب السلطاني، يجلس

---

(٧٨) وهو الآن من الطرق المتعارف عليها في تعليم الطب في البلاد الإسلامية وحتى الغربية.

(٧٩) أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٨٠) المرجع السابق، ص ١٤٠.

بالجامع المذكور لإقرار الطب وتعليمه، ويرتب له من الطلبة عشرة يشتغلون بالطب ويُلزمهم المدرس بحفظ ما يجب حفظه في الطب وعرضه وتصحيحه، ويوضح لهم مشكله ..."[٨١].

وكانت دورة التعليم في الطب، في دار شفاء الربع الرشيدي، على سبيل المثال، خمس سنوات، وإذا تبين للأستاذ بعدها أن الطالب بات قادراً على علاج المرضى وحده، يمنحه ما يسمى إجازة لممارسة مهنة الطب. وكان لكل طبيب ممارس خمسة عشر من الطلبة المتعلمين في علوم الطب. ويبدو أن عدد الطلبة كانوا في هذا الصرح الطبي العلمي حوالي خمسمائة طالب[٨٢].

وهناك بعض المعدلات التي تشير إلى عدد الطلاب الذين يتلقون العلم عن طبيب واحد كان لا يتجاوز الخمسين طالباً[٨٣].

(٥,٣) البيمارستانات المتنقلة

أول ما عرفت المراكز الصحية المتنقلة في الإسلام في حياة النبي ﷺ، في غزوة الخندق، حيث ضربت خيمة للجرحى، فلما أصيب سعد بن معاذ ﷺ في أكحله، قال رسول الله ﷺ: اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام. ثم توسع فيه الخلفاء والملوك بعد ذلك، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى؛ من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها

---

(٨١) المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٨٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٣- ١٤٤.

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٤٠.

مستشفيات ثابتة. كتب الوزير عيسى بن علي الجراح إلى سنان بن ثابت، وكان يتولى النظر في مستشفيات بغداد وغيرها: "فكرت فيمن بالسواد – أي القرى- من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم بإيفاد متطببين (أي أطباء) وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره"(٨٤).

وقد أسهم الوقف بدور فاعل في بناء المراكز الصحية المتنقلة لخدمة المرضى في المناطق البعيدة عن مراكز الحضارات والمدن(٨٥).

كما كان هناك نوع آخر من البيمارستانات المتنقلة يسمى بيمارستانات السبيل، حيث كانت ترافق قوافل الحجاج أو التجار، فكانت تجهز بمواد الإسعافات والأدوية، وتحمل في صناديق خاصة، وبرفقة طبيب وممرضين يعالجون من في القافلة، أو من تسير بهم القافلة في الطريق. وأول من قام بهذا العمل هو معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته(٨٦).

ومن الأمثلة على البيمارستانات المتنقلة التي كان يستعملها السلاطين في تنقلاتهم وحروبهم، ما ذكره ابن خلكان وابن القفطي حين قالا: "إن أبا الحكم المغربي عبد الله بن المظفر ابن عبد الله المرسي نزيل دمشق، كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون حملاً (أي جملاً)، المستصحب في معسكر السلطان حين خيّم. وكان القاضي السديد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن

---

(٨٤)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٨٥)فؤاد عبد الله العمر، *إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية*، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٨٦)محمود الحاج قاسم محمد، *الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به*، مرجع سابق، ص ١١٤.

المرخّم الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان المحمول المذكور. وكان أبو الحكم يشاركه"[٨٧].

(٥,٤) مباني الطب الوقائي

امتد دور الوقف إلى إنشاء مباني الطب الوقائي ولم يقتصر على الطب العلاجي فقط. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حيث خصص خدمات طبية معينة للمجذومين، ومنعهم من الاختلاط بالناس، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، وقد شمل ذلك المسلمين وغيرهم ومن رعايا الدولة الإسلامية. أيضاً ما فعله الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ، عندما أمر ببناء مستشفى خاص للعناية بالمجذومين ورعايتهم، وقد أمرهم بعدم الخروج منه، وأجرى عليهم الأرزاق[٨٨].

(٥,٥) المستشفيات البيطرية

لم تقتصر الأوقاف على المباني الصحية على علاج الإنسان فقط، ولكنها شملت الحيوان أيضاً، فكان الوقف على الحيوانات للمحافظة على الثروة الحيوانية التي اعتمدت عليها حياة المسلمين في حلهم وترحالهم، وفي أيام حروبهم وسلمهم، كما إن هذا الوقف يعبر عن لمسة إنسانية رحيمة حض عليها الإسلام[٨٩]. "ففي مستشفيات الجيش المتنقلة التي كانت تعالج الجيش الإسلامي، وجدت بجانبها وحدات

---

(٨٧)أحمد عيسى، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*، مرجع سابق، ص ١٤.

(٨٨)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٨٩)أحمد عوف محمد عبد الرحمن، *الأوقاف والرعاية الصحية*، مرجع سابق، ص ١٢٦.

لمعالجة الحيوانات بأقسام متخصصة وملحقة بها، ومجهزة بالأطباء البياطرة ومعاونيهم، إذ كان المحسنون والورعون من المسلمين يوقفون عليها قربة لله تعالى"[٩٠]. كما أوقفت مؤسسات للحيوانات المريضة[٩١].

(٩٠)عبد الله بن سليمان الباحوث، *الوقف والتنمية الاقتصادية*، مرجع سابق، ص ١٥٩.

(٩١)مصطفى السباعي، *من روائع حضارتنا*، مرجع سابق، ص ١١٣.

obeikandl.com